

كيف يتعامل المسلم مع الفلسفات والثقافات دون أن يفقد هويته؟



الأربعاء 22 يوليو 2026 05:00 م

إن المسلم الحق لا يكون تابعًا بلا وعي، ولا إمعة يسير خلف الناس حيث ساروا، فيقبل منهم كل ما يقولون دون تمييز بين الحق والباطل، والخير والشر، والنافع والضار، وإنما ينظر بعقل المؤمن، ويزن الأمور بميزان الشرع والعلم، ويبحث دائمًا عن أحسن الأقوال والأفكار والمواقف، مسترشدًا بقول الله تعالى: {فَبَشِّرْ عِبَادَ * الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ} الزمر: 17، 18.

وهذا المنهج الرباني يحدد موقف المسلم من الثقافات والحضارات والفلسفات المختلفة، فلا يغلق عقله عن كل جديد، ولا يذوب في أفكار الآخرين، بل يأخذ منها ما ثبت نفعه ووافق عقيدته وقيمه، ويرفض ما خالف وحي الله أو أفسد تصور الإنسان عن ربه ونفسه والحياة، فيكون كالنحلة التي تنتقل بين الأزهار، فلا تأكل إلا طيبًا، ولا تقدم للناس إلا طيبًا، وقد جاء في الحديث النبوي: «مثل المؤمن مثل النحلة، لا تأكل إلا طيبًا، ولا تضع إلا طيبًا».

المسلم ليس إمعة

لا يليق بالمسلم أن يجعل كثرة الأتباع دليلًا على صحة الفكرة، أو أن يربط الحق بمكانة قائله وشهرته، فقد يكون القول حقًا وقائله مخطئًا في أمور أخرى، وقد يكون القائل محبوبًا عند الناس لكنه يحمل إليهم باطلاً ظاهرًا □

المؤمن صاحب شخصية مستقلة، لا تحكمه الأهواء، ولا تقوده الدعاية، ولا يتبدل موقفه بتبدل الناس، وإنما يستمع ويتأمل ويسأل عن الدليل، ثم يتبع ما ظهر له أنه أحسن وأقرب إلى الحق □

وقد مدح الله تعالى أصحاب هذه العقول الراشدة فقال: {فَبَشِّرْ عِبَادَ * الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ} الزمر: 17، 18.

فالآية لم تمدح من يغلق أذنيه عن الأقوال، ولم تمدح من يتبع كل ما يسمع، وإنما مدحت من يستمع بعقل مفتوح، ثم يختار أحسن ما سمع بعقل واعٍ وقلب مهتدٍ □

منهج النحلة في التعامل مع الثقافات

يشبه المسلم الواعي النحلة في تعاملها مع الأشجار والثمار، فهي لا تقف عند زهرة واحدة، ولا تأخذ من كل شيء دون تمييز، بل تتحرك بهداية ربها، وتختار الطيب، ثم تحوله في داخلها إلى شراب نافع للناس □

وهكذا يتعامل المسلم مع المعارف والثقافات، فيقرأ ويتعلم ويبحث، لكنه لا ينقل الأفكار إلى مجتمعه نقلًا أعمى، وإنما يهضمها ويمحصها، ثم يعيد صياغة ما ينفع منها في إطار عقيدته وأخلاقه ومقاصد شريعته □

وقد عبّر النبي صلى الله عليه وسلم عن هذا المعنى في الحديث الشريف: «مثل المؤمن مثل النحلة، لا تأكل إلا طيبًا، ولا تضع إلا طيبًا».

فالمؤمن لا يتغذى فكرًا إلا على ما ينفع، ولا ينشر بين الناس إلا ما يصلح، ولا يجعل من نفسه معرًا للشبهات أو الشائعات أو الأفكار المفسدة، بل يكون مصدرًا للحكمة والخير والإصلاح □

الانتفاع بالحكمة أينما وجدت

قد تظهر بعض الحقائق أو الحكم في كتب أشخاص يخالفون الإسلام، أو في فلسفات تقوم أصولها على تصورات مادية أو منحرفة، لكن وجود الحقيقة بين الأباطيل لا يحولها إلى باطل، كما أن وجود الذهب في التراب لا يسلبه قيمته]

ولهذا لا يصح أن يرفض المسلم كل ما قاله فيلسوف أو مفكر لمجرد مخالفته في أصل من الأصول، بل ينظر في كل قول على حدة، فما وافق الدليل والعقل الصحيح والشرع قبله، وما خالف ذلك تركه وردّه]

وقد عبّر الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه عن هذا المنهج بقوله: «لا تعرف الحق بالرجال، بل اعرف الحق تعرف أهله».

فالحق لا يستمد قوته من أسماء قائله، ولا يصبح الباطل حقاً لأن مشهوراً قاله، كما لا يصبح الحق باطلاً لأن مخالفاً نطق به، وإنما يعرف القول بدليله وبرهانه وآثاره]

ولهذا حذر الإمام أبو حامد الغزالي من آفة رد الحق بسبب قائله، ويّين أن العاقل ينظر في القول نفسه، فإن كان حقاً قبله، سواء صدر عن إنسان محق أو عن إنسان جمع في كلامه بين الحق والباطل]

المصفاة الإيمانية والعقلية

يستطيع المسلم الراسخ في العلم والإيمان أن يقرأ الفلسفات والمدارس الفكرية المختلفة، وأن يطّلع على ما قدمه الفلاسفة وعلماء النفس والاجتماع والتاريخ، لكنه يعرض أفكارهم على مصفاة دقيقة أساسها الوحي والعقل والعلم الصحيح]

فقد يجد المسلم جانباً نافعاً في الشك المنهجي الذي يدعو إلى التثبت، أو في دراسة المجتمعات، أو في تحليل بعض الدوافع النفسية، أو في البحث في قوانين العمران والتاريخ، لكنه لا يقبل النظريات الكلية التي تنكر الخالق أو تختزل الإنسان في المادة أو الغريزة]

ويستطيع أن يأخذ من ديكارت دعوته إلى التحقق وعدم التسليم السريع، دون أن يقبل كل فلسفته، وأن يستفيد من بعض تحليلات علم الاجتماع أو علم النفس، دون أن يجعلها بديلاً عن الوحي أو تفسيراً شاملاً للإنسان]

كما يستطيع أن يقرأ لماركس أو فرويد أو دوركايم أو غيرهم، فيستفيد من ملاحظة جزئية أو تحليل محدود، لكنه يرفض ما يخالف التصور الإسلامي عن الله والإنسان والكون والقيم والتاريخ]

فرفض النظرية الكلية لا يعني بالضرورة أن كل جزئية فيها باطلة، كما أن قبول جزئية صحيحة لا يعني التسليم بالنظرية كلها، وهذه هي دقة المسلم في التمييز بين الصواب والخطأ]

العلم يحمي من الشبهات

ليس كل إنسان مؤهلاً لخوض أعماق الفلسفات والشبهات، فكما أن البحر لا يخيف السباح الماهر، لكنه قد يهلك من لا يحسن السباحة، فإن بعض الكتب والأفكار لا يخشى منها على العالم المتمكن، بينما قد تفتن قليل العلم والخبرة]

والسباح البصير، مع مهارته، يتجنب الدوامات ومواطن الخطر، فلا يغتر بقدرته، ولا يقترب مما لا طاقة له به، وكذلك المسلم العالم لا يقرأ بدافع الفضول المجرد، بل يعرف لماذا يقرأ، وكيف يقرأ، وما الذي يستطيع مناقشته والرد عليه]

أما من لم يتأسس في العقيدة، ولم يتعلم أصول الاستدلال، ولم يعرف محكمات الدين، فقد تكون سلامته في الابتعاد عن الكتب المليئة بالشبهات حتى يقوى علمه وتترسخ بصيرته]

وهذا لا يعني الدعوة إلى الجهل أو الخوف من المعرفة، وإنما يعني وضع العلم في موضعه، والتدرج في الطلب، وعدم إلقاء النفس في مواطن الفتنة قبل امتلاك أدوات الفهم والنقد]

لا ترفض الحق بسبب وعائه

ضرب الإمام الغزالي مثلاً بليغاً لمن يرفض العسل لأنه وجده في محجمة الحجام، فالعسل لا يتغير في ذاته بسبب الوعاء الذي وُضع فيه، كما أن الحق لا يتغير لأنه ورد في كتاب لمفكر منحرف أو في كلام إنسان غير مسلم]

إن النفور من الوعاء قد يحجب الإنسان عن المضمون، فيرفض القول الصحيح لأن صاحبه غير محبوب، أو يقبل القول الفاسد لأن صاحبه يحظى بمكانة في نفسه، وهذا من أعظم أبواب التعصب والانحراف]

وقد يبلغ التعصب ببعض الناس أن يرفضوا كلمة التوحيد إذا سمعوها من نصراني، مع أن بطلان معتقده في جوانب أخرى لا يجعل كل كلمة يقولها باطلة، وإنما الواجب تمييز الحق من الباطل في كلامه]

ولهذا قال الغزالي إن من أقل درجات العالم أن يتميز عن العامي، فلا يعرف الحق بأسماء الرجال، وإنما يعرف الرجال بمقدار قربهم من الحق والتزامهم به]

ميزان الوحي لا ميزان الهوى

المسلم في اختياره ليس انتقائيًا وفق رغبته الشخصية، فلا يأخذ من الأفكار ما يوافق شهوته ويترك ما يحقّله مسؤولية، وإنما يرجع إلى ميزان ثابت يجمع بين نصوص الوحي، والعقل السليم، والعلم المعتبر

فإذا وجد فكرة توافق هواه لكنها تصادم القرآن والسنة، لم يجز له أن يتبعها، وإذا وجد حقيقة علمية ثابتة أو حكمة نافعة لا تخالف الدين، لم يجز له أن يرفضها لمجرد أنها جاءت من بيئة مختلفة

والهوى قد يتزين باسم الحرية أو الحداثة أو الأصالة أو الدفاع عن الدين، ولذلك يحتاج المسلم إلى إخلاص وتجرد، حتى لا يجعل موقفه من الأفكار تابعًا للعاطفة أو العصبية أو التقليد

فالمؤمن يأخذ ما يأخذ عن بيئة، ويترك ما يترك على بصيرة، ويرحب بالمعروف حيث وجده، ويعرض عن المنكر ولو اجتمع الناس على تزيينه

الثقة بالإسلام والانفتاح الواعي

إن المسلم الواثق بدينه لا يخشى من الحوار أو الاطلاع، لأن الإسلام لا يعارض حقيقة ثابتة، ولا يخشى برهانًا صحيحًا، وإنما يرفض الخرافة والباطل والهوى الذي يتخفى في ثياب العلم والفلسفة

وقد بنى الإسلام عقل المسلم على التفكير والتدبر والنظر، لكنه في الوقت نفسه حماه من التكبر العقلي، وربطه بالوحي الذي يهديه فيما تعجز عنه التجربة البشرية أو تضطرب فيه أهواء الناس

والانفتاح الصحيح لا يعني التبعية للغرب أو الشرق، كما أن المحافظة على الهوية لا تعني الانغلاق ورفض كل إنجاز إنساني، بل المسلم يجمع بين الثبات على الأصول والمرونة في الوسائل والمعارف النافعة

فهو ينتفع بعلوم الآخرين، ويشارك في الحضارة، ويضيف إلى المعرفة، لكنه لا يسمح للأفكار المستوردة أن تنزع منه إيمانه أو تبدل قيمه أو تجعله تابعًا في عقله وسلوكه

اعرف الحق تعرف أهله

إن من غاية الضلال أن يقبل الإنسان الباطل لأن قائله محبوب، أو يرفض الحق لأن قائله مكروه، فالحق أرفع من الأشخاص والأشخاص يوزنون بالحق، ولا يوزن الحق بهم

وقد تتغير مواقف الناس، وتظهر أخطاؤهم، وتسقط مكانتهم، أما الحق فثابت لا يتبدل، ولهذا ينبغي للمسلم أن يطلب الدليل، وأن يبتعد عن تقديس الأشخاص أو التعصب للمدارس والتيارات

ويجب كذلك ألا يستسلم للدعاية التي تصنف الأفكار قبل مناقشتها، فيقال له إن هذا الفكر غربي فيرفضه، أو إن هذا الرأي تقدمي فيقبله، بل يسأل أولاً: هل هو حق، وهل عليه دليل، وهل يوافق شرع الله؟

إن المسلم العاقل ينتزع الحكمة من بين ركام الباطل، كما ينتزع الصائغ الذهب الخالص من التراب، لكنه يفعل ذلك ببصيرة وخبرة، لا باندفاع أو غرور

رسالة إلى طالب العلم

ابدأ بتعلم دينك قبل الخوض في تفاصيل المذاهب، واعرف أصول العقيدة ومحكمات القرآن والسنة، وتعلم قواعد التفكير والاستدلال، ثم اقرأ للآخرين بعقل الباحث لا بعقل التابع

لا تجعل كل ما يلمع حقيقة، ولا تجعل كل ما يأتي من مخالف باطلاً، واسأل العلماء الثقات فيما أشكل عليك، ولا تستقل بفهمك في المسائل الكبرى قبل اكتمال أدواتك

وتذكر دائماً قول الله تعالى: {مَبَشِّرْ عِبَادِ * الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ} الزمر: 17، 18.

واجعل أمامك هدي النبي صلى الله عليه وسلم في وصف المؤمن: «مثل المؤمن مثل النحلة، لا تأكل إلا طيبًا، ولا تضع إلا طيبًا».

فكن كالنحلة في علمك وفكرك وكلامك، خذ الطيب، واهضم النافع، وانشر الخير، ولا تكن وعاء لكل ما تسمع، ولا جسراً يعبر منه الباطل إلى عقول الناس

إن المسلم الحق ليس تابعًا ولا منغلغًا، بل هو إنسان مهتدٍ ثابت الأصول، واسع الأفق، يحسن الاستماع والاختيار، ويأخذ الحكمة من أي موضع وجدها، ثم يرد كل شيء إلى ميزان الوحي والعقل والعلم، فيعرف الحق أولاً، وبالحق يعرف أهله

